

«لَوْ طَهَّرْتُ قُلُوبَكُمْ مَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ﷻ».

عِبَادَ اللَّهِ: هَذَا الْأَثَرُ عَنِ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ»، وَمِنْ طَرِيقِهِ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ»، وَفِيهِ بَيَانُ لِحَالِ الْقَلْبِ سَلَامَةً وَعَطَبًا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ قَدْ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ الْكِتَابَ تَذْكِرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ١٥﴾.

- كِتَابٌ أَوْدَعَهُ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ الْعَجَبِ الْعُجَابِ، فَهُوَ أَجَلُ الْكُتُبِ قَدْرًا، وَأَغْزَرُهَا عِلْمًا، وَأَعْظَمُهَا نَفْعًا، وَأَكْثَرُهَا بَرَكَاتٍ، وَأَعَذَّبُهَا نَظْمًا، وَأَبْلَغُهَا فِي الْخِطَابِ، وَهُوَ شِفَاءٌ لِمَرَضِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ، قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الدَّاءُ وَالِدَوَاءُ»: الْقُرْآنُ كُلُّهُ شِفَاءٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَهُوَ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ، فَلَمْ يُنَزِّلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ السَّمَاءِ شِفَاءً قَطُّ أَعَمَّ وَلَا أَنْفَعَ وَلَا أَعْظَمَ وَلَا أَشْجَعَ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ مِنَ الْقُرْآنِ. اهـ

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ ائْتَنَّا اللَّهَ ﷻ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

وَتَأْمَلُوا يَا عِبَادَ اللَّهِ هَذِهِ الْمَعَانِي عَنْ كِتَابِ رَبِّكُمْ سُبْحَانَهُ:

- هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ لَوْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى جَبَلٍ لَخَشَعَ وَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ. قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٦﴾.

- كِتَابُ صَانِهِ اللَّهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَفَتْ نُزُولِهِ: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ١٧﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ١٨﴾.

- وَتَكْفَلُ بِحِفْظِهِ بَعْدَ نُزُولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ١٩﴾.

- كِتَابٌ هُوَ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

- كِتَابُ وَصْفِهِ اللَّهُ بِالْعَظَمَةِ. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾.

- كِتَابُ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ الْعُلُوءَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٨٨﴾﴾.

- كِتَابُ بَيِّنٌ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ. قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

- كِتَابٌ فِيهِ هِدَايَةٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

- كِتَابٌ فِيهِ عِصْمَةٌ مِنَ الضَّلَالِ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللَّهِ».

- كِتَابٌ عَالٍ لَا يُدَانِي، كَثِيرُ الْخَيْرِ وَالْمَنَافِعِ، وَوُجُوهُ الْبَرَكَاتِ. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾.

- كِتَابٌ فِيهِ حَيَاةُ الْأَرْوَاحِ لِمَنْ اسْتَجَابَ لَهُ. قَالَ اللَّهُ ﻻ إِلَهَ إِلَّا هُوَ: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

- كِتَابٌ فِيهِ شِفَاءٌ لِّأَمْرَاضِ الْأَبْدَانِ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، أَنَّ عَقْرَبًا لَدَغَتْ رَجُلًا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَرِئَ عَلَيْهِ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، فَبَرَأَ.

- كِتَابٌ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَتَثْبِيتٌ لِلْقَلْبِ عِنْدَ الْفِتَنِ وَالْمَصَائِبِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

- كِتَابٌ تَحَدَّى بِهِ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِنْ سَهُمْ وَجَنَّهُمْ. قَالَ ﷺ: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٩١﴾﴾.

- كِتَابٌ مَا سَمِعَهُ عَاقِلٌ إِلَّا شَهِدَ أَنَّهُ حَقٌّ. سَمِعَتْهُ الْجِنَّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْصِتُوا، وَعَادُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿٩٢﴾﴾.

- كِتَابٌ مُّعَلَّمُهُ وَمُتَعَلَّمُهُ خَيْرُ النَّاسِ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

- كِتَابٌ فِيهِ مِنَ الْأَنْبَاءِ أَصْدَقُهَا، وَمِنَ الْبَرَاهِينِ وَالِدَّلَائِلِ أَظْهَرُهَا، وَمِنَ الْقَصَصِ أَحْسَنُهَا، وَمِنَ الْحِكَمِ أَبْلَغُهَا، وَمِنَ

الْبَلَاغَةُ وَالْفَصَاحَةُ أَجْمَلُهَا.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْجَوَابِ الصَّحِيحِ»: نَفْسُ نَظْمِ الْقُرْآنِ وَأُسْلُوبِهِ عَجِيبٌ بَدِيعٌ، لَيْسَ مِنْ جِنْسِ أَسَالِيبِ الْكَلَامِ الْمَعْرُوفَةِ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِنَظِيرِ هَذَا الْأُسْلُوبِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الشُّعْرِ وَلَا الرَّجَزِ، وَلَا الْخُطَابَةِ وَلَا الرَّسَائِلِ، وَلَا نَظْمُهُ نَظْمُ شَيْءٍ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ، وَنَفْسُ فَصَاحَةِ الْقُرْآنِ وَبَلَاغَتِهِ هَذَا عَجِيبٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَبَسْطُ هَذَا وَتَفْصِيلُهُ طَوِيلٌ، يَعْرِفُهُ مَنْ لَهُ نَظَرٌ وَتَدَبُّرٌ. اهـ

- كِتَابُ امْتَدَحِ اللَّهِ مَنْ تَلَاهُ، وَأَثْنَى عَلَى الْعَامِلِينَ بِهِ، وَوَعَدَهُمْ بِالْوَفَاءِ وَالزِّيَادَةِ. فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورُهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

- كِتَابٌ مَنْ قَرَأَ مِنْهُ حَرْفًا فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا. أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الْم﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ: أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا مٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ».

- كِتَابٌ تَعَلَّمَهُ خَيْرٌ مِنْ نَفَائِسِ الْأَمْوَالِ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَawَيْنِ [أَي: عَظِيمَتَا السَّنَامِ] فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ».

- كِتَابٌ مَجَالِسُهُ تُحَفُّهَا الْمَلَائِكَةُ، وَتُنَزَّلُ عَلَيْهَا السَّكِينَةُ، وَتَغْشَاهَا الرَّحْمَةُ، وَيَذْكُرُ اللَّهُ أَهْلَهَا فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَدَا النَّسَائِيَّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

- كِتَابُ بِاسْتِمَاعِهِ تُنَالُ الرَّحْمَاتُ. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

- كِتَابُ يُقَدِّمُ حَامِلُهُ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ. أَمَّا فِي الْحَيَاةِ: فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ».

وَأَمَّا بَعْدَ الْوَفَاةِ: فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتَلَى أَحَدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟»، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

- كِتَابُ أَهْلُهُ أَهْلُ مَشُورَةِ الْخُلَفَاءِ وَالْعُلَمَاءِ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةِ عُمَرَ، كُھُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا.

- كِتَابُ حُجَّةٍ لِأَهْلِهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَشَافِعٌ مُشَفِّعٌ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ».

- كِتَابُ صَاحِبُهُ فِي الْآخِرَةِ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ النَّعِيمِ. أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا».

أَبْعَدَ هَذَا نَهْجُ الْقُرْآنِ يَا عِبَادَ اللَّهِ؟!

إِنَّ هَاجِرَ الْقُرْآنِ مُتَوَعِّدٌ بِالْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: أَيُّ: فِي الدُّنْيَا، فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ، وَلَا انْشِرَاحَ لَصَدْرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ، وَلَبِسَ مَا شَاءَ، وَأَكَلَ مَا شَاءَ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ. اهـ